فاطمة والأمير الزاهد

عبد المنعم الهاشمي

دار الإيمان
إسكندرية

obeikandl.com

محفوظة
جميع الحقوق

رقم الإيداع ٢٠٠٣/٣٢٣٤

الترقيم الدولي

977-331-971-1

دار الفيحاء
للطبع والنشر والتوزيع
١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
تليفون وفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩٦ ت: ٥٤٤٦٤٩٦

دار العمة
لتوزيع الكتاب والنشر والتصدير
١٩ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
تليفون وفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩٦ ت: ٥٤٤٦٤٩٦
E-mail:dar-aleman@hotmail.com

obeikandl.com

فاطمة والأمير الزاهد

فاطمة بنتُ عبد الملك بن مروان ابنةُ خليفةٍ هو عبد الملك بن مروان وأختُ خلفاءهم الوليد بن عبد الملك وهشام سليمان ويزيد وهي زوجة أميرِ المؤمنين الخليفةِ العادلِ عمر بن عبد العزيز، كانت من أكثرِ النساء وفاءً لزوجِها.

كانت فاطمةُ الأميرةُ فصيحةً أدبية، وكانت ذاتَ جمالٍ أخاذ وخلقٍ ناقذٍ، وكانت ديِّنةً ورعةً ورعًا لم يسبق إليه أحدٌ من نساء بني أميَّةَ.

وكان لعبد الملك بن مروان بضعُ بناتٍ مِنْهُنَّ: عائشةُ وفاطمةُ وأمِّ كلثوم. وكانت فاطمة أقربَ بناتِه إلى قلبِه ومن أحبهنَّ إليه، وبلغ من حُبِّه لها أن أوصى بها أحبَّ أبنائه إليه وهو الوليد بن عبد الملك **فقال له:** يا بنيَّ، عليك بالإحسان إلى أخواتِك فأكرمهنَّ، وأحبُهنَّ إليَّ فاطمة.

وقد دعا لها أبوها عبد الملك فقال: اللهم احفظني فيها.

وقد استجاب ربُّ العزَّة لدعائِه حينما قسَم لها الزواج من ابن أخيه الخليفةَ العادل عمرَ بن عبد العزيز.

وكانت فاطمةُ شديدةَ الارتباطِ والتعلُّق بأبيها حتى وفاته، فلما حضرته الوفاةُ، **قال لها:** يا بنيةُ، اسقني ماءً، فمنعها أخوها الوليد. **فقال له عبد الملك:** يا وليد، لتدعُنَّها تحضرُ الماء، أو لأخلعنك من ولايةَ العهد. فتركها الوليد، فسقته فمات.

الزواج المبارك:

نظر عبد الملك إلى ابن أخيه عمر بن عبد العزيز، وتذكّر أخاهْ عبد العزيز بن مروان، ولما نظر إلى ابن أخيه أُعجب به إعجابًا شديدًا، فقد كان عمر فتى جميلاً من أكثر الناس اهتمامًا بثيابه وملبسه، فكان يشتري الحلّة بألف دينار، فإذا لبسها استخشنها ولم يستحسنها[1].

وكان رضوانُ الله عليه يشتري القميصَ باربعمائة دينار، فإذا لمسه بيده، **قال**: ما أخشنه.

وكان حبُّه للعطر والطيب شديدًا، حتى أن أترابه وأصحابه كانوا يدفعون المال الوفير لمن يتولَّى غسلَ ثياب عمر حتى يغسلوا ثيابهم بعد ثيابه كي تكتسب عِطرَ ملابسِ.

وقد عاشَ الأمير الأموي الشاب حياةً رغدةً تعجُّ بالرفاهية، فكان إذا مشى بهر العينيْن، وخطر بيديه في خُيلاء، تميز بها عن كثير من أقرانه وأترابه، حتى إنَّه أصبح صاحب مَشيةٍ ملوكيِّة، فلما تولى الخلافةَ غيَّر مشيته فقيل له: يا أمير المؤمنين، غيرت في كلِّ شيء حتى مشيتك، **فقال نادمًا على ذلك**: والله ما رأيتها كانت إلا جنونًا[2].

وكان الفتى الأموي يمتلك عبيدًا وثيابًا وعطرًا، وبالطبع أموالاً كثيرة ومتاعًا عظيم، فنشأ هادئًا ذكيًا نقيًا وعالمًا وفقيهًا مما لفت نظر عمه عبد الملك فأمر بضمِّه إليه يعيش بين أسرته وأولاده، فمن شدة حبه له خلطه بولده كأنَّه واحد منهم، بل قدَّمه على كثير منهم.

---

(١) «مروج الذهب»، (جـ٢، ص١٤٥، ١٤٦).

(٢) «الخراج» لأبي يوسف، (ص١٧).

وقد زاد اهتمامُ أمـير المؤمنينَ عبد الملك بن أخيه عـمر بن عبد العزيز لما رأى فيـه من علمٍ ونباهةٍ، وفراسةٍ، ودينٍ، غير مـا سمعه من أقوال الناس من أنهم يتوقعون من عمرَ بأنه الذي بشَّر به عمر بن الخطاب فقال عنه الأَشجُّ الذي يملأ الأرض عَدْلاً.

وإذا وُجدت كلُّ هذه الصفاتِ الكريمة في عمر بن العزيز فكيف لا يفكرُ عبد الملك ابن مروان في صلةٍ وثيقـةٍ تربطه بابن أخيه عمر، لقد أحب عـمر حبًّـا شديدًا وفاطمـةُ ابنته هي التي دعا لهـا قائلاً: اللهم احفظني فيها».

وفي يوم من أيام خلافـةِ عبد الملك، كانت الخـلافة الأُموية في عـزِّها، وفيـما كـان عـبد الملك يجلـسٍ بين وزرائه وقادة جـيوشـه وخاصتـهِ في قصر الخـلافةِ في دمشق، طابت نفسـهُ بأن يجمعَ ابنَ أخيه عمرِ بن عبدالعزيز وبنته فاطمة، فتهيَّأ المجلسُ لسماعِ أمرٍ مهم، عندئذ توجَّه إلى عمرَ، قائلاً: يا عمرُ.

فانتفضَ عمر واقفًا وهو يقول في أدبٍ: لبيك يا عمَّاه.

فقال أميرُ المؤمنين عبد الملك لعمر: قد زوَّجتُكَ فـاطمةَ بنت عبد الملك.

فقال عمر في أدبٍ وفصاحةٍ: وصلك الله يا أميرَ المـؤمنين، فقد كفيت المسألة، واجزلت العطيةَ.

أُعجب عبد الملك بهـذا الردِّ البليغ، وبدا البشرُ والسرورُ على وجهه، لكن أحد أولاد عبد الملك قلل من هذا **قائلاً لأبيه:** «يا أمير المومنين هذا كلام تعلَّمـه فأدَّاه، ولا يُحْسِنُ غيـره، ورُبَّ رميةٍ من غير رامٍ».

سكت عبدُ الملكَ ولم يُعلِّق على كلامِ ابنه، وانفضَّ المجلسُ، وفي اليوم التالي دخل عمرُ على عبد الملك وحيَّاه بأدبٍ، فأحبَّ عبد الملك أن يُرىَ ولَده قيمة عمرَ ومكانتَهُ وعلْمَه، **فقال**: يا عمر، كيف نفقتك؟

قال عمر: يا أمير المؤمنين، بين السَّيئتين.

فقال عبد الملك: وما هما يا عمر؟

فقال عمر بعلم ودراية: نفقتي يا أميرَ المؤمنين كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا** ﴾ (سورة الفرقان: ٦٧).

فازداد عبدالملك إعجابًا بهذه الإجابة الكافية الشَّافية، **وقال لولده**: مَنْ علَّمه هذا؟

وتمَّ زفافُ فاطمةَ بنتِ عبد الملك إلى عمرَ عبد العزيز، وكانت فاطمةُ من أجملِ النساءِ وأحسنهنَّ، وأكملهنَّ أدبًا ورقَّةً، وكان يومُ زفافها يومًا جميلاً في دمشقَ، فقد حضرَ الناسُ من كلِّ مكانٍ عرسَ فاطمةَ وعمرَ فكانوا يُسرِجُونَ القناديلَ بالغالية مكان الزيت، وأولم عمر بن عبد العزيز بمناسبة عُرْسه على فاطمة. وعاشت فاطمة في كنف ابن عمِّها الأُموي حياةً مرفهةً جميلةً.

وقد أصبحت فاطمة بنت عبد الملك ـ رحمها الله ـ من ذوات الشُّهرةِ في عصرِها، فقد خصها الله عزَّ وجلَّ ـ بمنحة الفضلِ والجمالِ والفصاحةِ والأدبِ، كما خصَّها الله بالحصافةِ والذكاءِ وحب العلمَ والروايةَ.

كانت فاطمة أميرةً من أميرات بني أمية اللائي تمرغنْ في ثياب الحريرِ المعطرِ، وتَطَيَّبْنَ من قوارير لا حصرَ لها من عطرِ «دارين»

المشهور، «وداريـن» هذه مدينةٌ كانت تقع في البحرين ومشهورةٌ بنتاج أجودِ أنواعِ الطيبِ والعطورِ، وقد اشتهر أحد قرَّاء لقرآن السبعة ونُسب إلى «دارين» هذه لأنَّه كان يجلب منها العطر إلى مكَّةَ فُسمي عبد الله بن كثير الداري ـ قارئ مكَّةَ الأوَّل.

نعود إلى فاطمة فلقد جاء زمان تغيرَّ فيه حالُها، فلم تصبح أميرةَ العطرِ والعنبر، ولا سيدةَ الدورِ والقصورِ، بل تبدلت حياتها من حال إلى حال، ووضعت صناديقُ الذهبِ والحلي إلى مكانٍ آخر غير خزانةِ فاطمة أو قصورها الواسعةِ الجميلةِ. ترى متى حدث هذا؟ ولماذا؟

إذا أردنا أن نجيب على هذه الأسئلة فإننا نعودُ إلى الأيامِ التي استلمَ فيها عمروُ بن عبد العزيز الخلافةَ وأصبح خليفةَ المسلمين، يومها تغيرت الحالُ وتبدَّل الأمرُ، ــ فقد جاءت لحظةُ اختيار مهمة بين أميرةِ القصر، وبين داعيةِ المسلمين أو قل زاهدة المسلمين ـ في هذه اللحظة كانت تجلس مع زوجها عمر بن عبد العزيز الذي التفت إليها بحنوٍ وعطفٍ يدل على إيمانٍ ورفقٍ **وقال لها**: يا بنة عمِّي، إنْ أردت صُحْبتي فاسمعي منِّي هذه الكلمات.

قالت فاطمةُ: حُبًّا وسرورًا يا أمير المؤمنين، قل ما بدا لكَ.

فقال عمر: إن أردت صحبتي فإنِّي مُخيرك بين اثنيْن، إما أنْ تردِّي حليك وما مَعَكِ من مالٍ وجواهر إلى بيت مال المسلمين فإنَّه لهم؛ وإمَّا أن تأذني لي في فراقِكِ، فإنِّي أكره أنْ أكونَ أنا وأنتِ وهو في بيتٍ واحدٍ.

فأجابت أميرةُ الأميراتِ على الفور قائلةً: بل اختارُكَ يا بن العم على أضعاف هذا المال لو كان لي؛ ثم رددتهُ إلى بيتِ مالِ المسلمين لأنَّه لهم.

هكذا كان اختيارُ الأميرةِ ـ على الرغم من أنَّ هذا المالَ لم تنله فاطمةُ إلاَّ من هدايا أبيها أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان[1].

وأصبحت أميرةُ الأميراتِ زاهدةَ الزاهداتِ في قصور بني أُمية، طعامُها طعامُ الناسِ لا يزيد ولا ينقص، وقد طلب عمر منها ألا تدخل أو تأخذ طعام الناس طعامًا خاصًا لهم، وذلك عندما أن أنشأ دارًا لإطعام الفقراء والمساكين وأبناءِ السبيلِ والمحتاجين، **فقال لزوجته فاطمةَ وأهل بيته جميعًا**: إياكم أن تُصيبوا من هذا الدار شيئًا من طعامِها، فإنَّما هو للفقراء والمساكين وابن السبيل.

مشاهدةُ مع عمرَ الزاهد:

أعلمُ الناسِ بالرَّجل هي امرأته، وقد وصفت فاطمة زوجها عمر ابن عبد العزيز **فقالت**: كان عمر بن عبد العزيز ـ من أعظمِ قريشٍ، وأرفههم مَرْكبًا، وألينهم ثوبًا، وأطيبهم طعامًا، قبل أن يلي الخلافةَ، فلمَّا وُلِّيَ الخلافةَ لبس الكرابيسَ والصُّوف، وربَّما ادَّهَن بزيت العلَّة ـ تعني الماء ـ ولا رفع ثوبًا يدَّخره، ولا اتَّخذ أمةً منذ وَلِيَ الخلافة إلى يومَ مات، فهذه كانت حياتُه.

ولم يكن حديثُ فاطمةَ بنت عبد الملك عن زوجها عمر بن عبد العزيز من فراغ، فقد كان الرَّجل مثلا يحتذى، وقيمةَ تُقتدَى، ونستشف إخلاصَهُ من حوارٍ دارَ بينه وبين ابن عمِّه سليمان بن عبد الملك عندما سأله عمَّا هو فيه من مُلْكٍ عظيمٍ ونعيمٍ مقيمٍ، **فقال له**:

---

(١) «الكامل في التاريخ»، (جـ٥، ص٤١).

يا عمرُ كيف تـرى ما نحن فيه؟ **فأجابه قائلاً**: سرورٌ لولا أنَّه غرورٌ، وحُسنٌ لولا أنَّه حُزْنٌ، ونعيم لولا أنَّ عذابٌ أليم[1].

فكيف كان هو ـ ذلك سؤالٌ طُرِحَ على فاطمـةَ يوم وفاةِ عمر، فقد ذهب إليهـا الفقهاءُ والعلماءُ مُعـزين، ومن ثمَّ سائلين عن تقوى الخليفة الزاهد **فقالوا لها**: يا فاطمة أخبرينا عن عمر، فإنَّ أعلم النَّاسِ بالرجل أهلهُ.

فقالت: «والله ما كـان بأكثركم صـلاة ولا صيامًـا ولكن الله ما رأيتُ عبـدًا أشدُّ خوفًا لله من عـمر، كان همُّه بالناس أشـدَّ من أمْرِ همِّه بنفسه، قد فرَّغ بدنَه ونَفْسَـه للنَّاس، يقعد لحوائجهم يومَه، فإذا أمسى وعليه بقيةٌ مِنْ حوائجهم وصله بليله».

لم يبق للأسير الزاهد وقتٌ للملذات، ـ وفي ذلـك تقول فاطمةُ أميرةُ الزاهداتِ أو زاهدة الأميـرات: ووالله، إنْ كان عمر ليكون في المكان الذي ينتـهي إليه الرَّجُل مع أهلِه، فـيذكَرُ الـشَّيءَ في أمرِ الله فيضطربُ كـما يضربُ العصفورُ قـد وقع الماء، ثم يرتفع بكاؤهُ حتى أَطْرحَ اللحـافَ عنِّي رحمـةَ له، والله لو رددتُ لو ان بيننا وبين هذه الإمارة بُعْدَ ما بين المشرقيْن[2].

وتقول فاطمةُ عن الأمير الزاهد عمر بن عبد العزيز: دخلت عليه وهو في مصلاَّهُ ودموعهُ تجري على لحيتِه، فقلت أحدثَ شيءٌ يا بن العم؟

فقال: «إنِّي تقلَّدتُ أَمْرَ أُمةِ مـحمَّدٍ فتفكرت في الفقـيرِ الجائعِ، والمريضِ الجائعِ، والغـازي، والمظلومِ، والمقهورِ، والغريبِ الأسـيرِ،

---

(١) المسعودي في «مروج الذهب» (٢/ ١٤٠).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٥/ ١٣٦).

والشيخ الكبير، وذي العيال الكثير، والمال القليل، واشباههم في أقطار الأرض، فعلمت أنَّ ربي سيسألُني عنهم يومَ القيامة، وأنَّ خصمي دونهم محمدٌ ﷺ إلى الله، فخشيت ألاَّ تثبت حجَّتي عند الخصومة، فرحمت نفسي فبكيتُ».

في بيت الأميرة الزاهدة:

تذكر سيرةُ أَميرِ المؤمنين عمر بن عبد العزيز الكثيرَ عن بيته هو وزوجه فاطمة بنت عبد الملك ـ ومن ذلك أنَّ امرأةً قَدمت منَ العراق لحاجة على عمر بن عبد العزيز، فلمَّا صارت إلى باب بيته سألت قائلةً: هل على أمير المؤمنين حاجبٌ يمنعُ الناسِ من الدخول عليه؟

فقالوا لها: لا يا أمةَ الله، ادخلي إن أحببت.

ودخلت المرأة على فاطمة بنت عبد الملك ،وهي جالسةٌ في بيتها، وفي يدها مغزلٌ تعالجُ به القطنَ، فسلَّمت عليها، فردَّت فاطمةُ السَّلام، **وقالت لها:** ادخلي ـ فدخلت المرأةُ ولما جلست راحت تجولُ بنظرِها في بيت أمير المؤمنين، فلم تجد قصرًا ولا خدمًا ولا حشمًا، فأصابتها الدهشةُ وتعجبَّت وتمت قائلةً: عجبت إنما جئت لأُعمِّرَ بيتي من هذا البيت الخرب؟

فلما سمعتها فاطمةُ الأميرةُ الزاهدة قالت لها: إنَّما خَرَّبَ هذا البيتَ عمارةُ بيوت أمثالك.

وسمعت فاطمةُ وقع خطى رجُل، فإذا هو عمر قد أَقْبَلَ حتَّى دخل الدَّار، واتَّجه نحو بئرٍ في ناحية الدار، وأخذ دلوًا من الماء وأفرغه على طين كان في البيت، وكانَ يكثرُ النظرَ إلى زوجه فاطمة.

وتعجبتُ المرأةُ العراقيةُ من عمرَ ـ وهي لا تعرفه ـ لأنَّه ينظرُ إلى فاطمة.

فقالت لها المرأة وقد تعجَّبت من نظرهِ إليها: يا فاطمةُ استتري من هذا الطيَّـــان، فـإنِّي أراه يُديمُ الـنَّظَرَ إليكِ، وأنتِ أنتِ مـن المكانةِ والفضل والرِّفعةِ.

قالت فاطمةُ والبسمة تعلو وجْهها: يا أَمةَ اللهِ، ليس هذا الرَّجلُ بطيَّان.

فقالت المرأة: ومن هو إذًا؟!

قالت فاطمةُ: هو أميرُ المؤمنين عمرُ بنُ عبد العزيز زوجي.

ثم أقبل عمر، فسلَّم، ودخل بيتهَ، فمالَ إلى مصلًى كانَ لهُ في البيت فصلّى فيه، فسألَ فاطمةَ عن المرأةِ **فقالتْ:** هي هذه.

فأخذ عمر مِكْيلاً له فيه شيءٌ من عنب، فجعل يتخيَّر له خَيْرَهُ، ويناولها إيَّاه، ثم أقبل عليها **فقال:** ما حاجتُك يا أمةَ الله؟

فقالت: يا أميـرَ المؤمنين، أنا امرأةٌ من أهل العـراق، لي خمسُ بنات كُسَلٌ كُسَدٌ (أي: لا مصـدرَ رزقٍ لهنْ)، فجئت ابتـغي حُسْنَ نظركَ لهنْ.

فجعل يقول: كُسُلٌ كُسُدٌ، ويبكي.

فأخذَ الدواةَ والقـرطاسَ، وكتب إلى والي العراقِ فـقال: سمِّي كُبراهُنَّ، فسمَّتها، ففرض لها. **فقالت المرأة:** الحمد لله.

ثم سأل عن اسم الثانية، والثالثة والرابعة ـ والمرأة تحمد الله فلما فرض للأربع استفزَّها الفرحُ، فَدَعَتْ له، فجزته خيرًا، **وقالت:** جزاك الله خيرًا ـ فرفع يده عن الخامسة، **وقال:** كنَّا نعرضُ لهنَّ حيث كنتِ تولينَ الحمدَ أهلَه، فمري هؤلاء الأربع يُفضْنَ على هذه الخامسة.

فخرجت بالكتاب حتَّى أتت به العراقَ، فدفعتهُ إلى والي العرق، فلمَّا دفعت إليه الكتابَ بكى وشتدَّ بكاؤه، **وقال**: رحم الله صاحب هذا الكتاب.

فقالت المرأة: أمات.

قال: نعم.

فصاحت وولولت، **فقال لها**: لا بأسَ عليك يا أمةَ الله، ما كنتُ لأردَّ كتابَهُ في شيءٍ، فقضى حاجتها، وفرض لبناتها[1].

وعاشت أميرة الأميرات، الأميرة الزاهدة حياة الزهد مع زوجها أمير الزاهدين عمر بن عبد العزيز. ومن أمثلة ذلك أن مسلمةَ بن عبد الملك أخا فاطمةَ بنتِ عبد الملكِ دخلَ على عمرَ يعودُهُ، فرأى قميصَهَ دَنَسًا وسخًا، **فقال لأختهِ فاطمةَ**: ألبسيه غيرَ هذا القميصِ! واغسلوا ثياب أمير المؤمنين، فسكتت فاطمة ولم تردَّ على مسلمة.

فقال مسلمةُ ثانيةً: يا فاطمةُ ألبسي أميرَ المؤمنين عمرَ غيرَ هذا القميصِ أو اغسليه، فإنَّه يَدْخُلُ عليه الخاصُّ والعامَّ.

فقالت فاطمة: نفعل ـ إن شاء الله ـ.

ثم دخل مسلمةُ مرَّةً ثانيةً يعودُ عمر، فرأى الثوبَ كما هو على حالِه، **فقالَ لأختِهِ فاطمةَ**: ألبسيه غيرَ هذا القميص! واغسلوا ثياب أمير المؤمنين، فسكتت فطمة ولم تردَّ على مسلمة.

---

(١) «سيرة عمر بن عبدالعزيز» لابن عبد الحكم (ص١٤٤) وما بعدها.

فقال مسلمةُ ثانيةً: يا فاطمةُ ألبسي أميرَ المؤمنين عمرَ غيرَ هذا القميص أو أغسليه فإنَّه يدخلُ عليه الخاصُّ والعامُّ.

فقالت فاطمةُ: نفعل ـ إن شاء الله ـ.

ثم دخلَ مسلمةُ مرَّةً ثالثةً يعود عمرَ، فرأى الثَّوب بحالِه، **فقال**: ألم آمركم أن تغسلوا قميصَه.

فقالت فاطمةُ وقد اغرورقت عيناها بالدُّموع: والله يا أخي ما له قميصٌ غيرُه، وكانت نفقتهُ في كُلِّ يوم درهَمَيْن[1].

انظر كيف زَهدَ الأمير وزوجه الأميرة في الدنيا وما فيها رغبًا في الآخرة ورهبًا من الله عزَّ وجلَّ، فالأمير الزاهد وزوجه باستطاعتهما أن يلبسا أفخرَ الثياب ويتناولا ألذَّ وأطيبَ الطعام، فقد كانت حياتُهما قبل أن تولِّى عمرُ الخلافةَ كذلك حياة أُمراء ينعمون بكل متاعِ الدنيا، ويرفلون في ثيابِ النعيم، فيلبسون الحريرَ ولقد كانتْ نفقةُ عمرَ بن عبد العزيزأمير المؤمنين وخليفة المسلمين درهمينْ في كلِّ يومٍ، وبيده كلُّ أموالِ الدنيا، ولكنَّه كان أحيانًا يشتهي بعضَ الفاكهةِ، ولا يملك درهمًا واحدًا يشتري به.

دخل يومًا على فاطمة وقد اشتهى عنبًا، **وقال**: يا فاطمة، عندك درهمٌ اشتري به عنبًا؟

قالت: لا والله يا أميرَ المؤمنين لا أملك درهمًا.

---

(١) «الكامل» (جـ٥/ ٦٢).

قال: فعندكَ فلوس إذًا؟

قالت في تعجبٍ: لا والله، أنت أميرُ المؤمنينَ، ولا تقدرُ على دِرْهمٍ!!

فقال عمر ـ رحمه الله ـ: «يا فاطمةُ، هذا أهوَنُ من معالجةِ الأغلالِ في جهنم»[1].

ولم يشترِ عمرُ ما اشتهاه من الفاكهةِ، وحرم نفسَهُ من متاع الدُّنيا، عندما وضعَ المالَ تحت قدميه ولم ينحنِ أمامه كما ينحني أهلُ الطمعِ في زماننا هذا.

أصبحت فاطمةُ وحياتُها الزاهدةُ مع زوجها أمرًا معتادًا لها يستغربه النَّاسُ على أمير المؤمنين وأهلِه، وقد كان عمر حسن الجسم ممتلئًا جميلاً، وعندما صارت إليه الخلافة تغيَّر، وتغيَّرت طريقة تفكيرِه، فقد دخل عليه محمد بن كعب القرظي بعد استخلافِه، فوجده ناحلَ الجسم وقد عف شعرُهُ، وتغيَّر لونُهُ، وكان عهدُهُ به في المدينة وهو أميرٌ عليها ـ حسنَ الجسم، ممتلئًا، فجعل ينظر إليه ولا يصرف بصره عنه.

فقال عمر له: يابن كعب، مالك تنظر إليَّ نظرًا ماكنت تنظرهُ إليَّ من قبلُ. **فقال محمد بن كعب:** لعجبي يا أميرَ المؤمنين؟

قال عمر: وَمِمَّ عجبُك؟

---

(١) الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٦٣٤).

قال محمد بن كعب: ممَّا نحل من جسمك، وعفا من شعرك، وتغيَّر لونك، أين ذاك اللونُ النضيرُ، والشَّعرُ الحَسنُ، والبدنُ الرَّيان؟

فقال عمر: إنَّك إذا الأشدّ عجبًا من أمري، وإنكارًا لي، لو رأيتني بعد ثلاثٍ في قبري، وقد وقعت عيناي على وجنتيَّ، وسكن الدود أنفي وفميَ، ثم راح يبكي ويبكي ويبكي.

أمَّا فاطمةُ فقد طرحت وراءها كلَّ ذكريات الإمارةِ والنعيم والقصور حتى وإن ذُكِرَت بذلك كان ردُّها يدلُّ على أنَّها خرجت من نعيم الدنيا ومتاعها إلى الأبد فلم تبد حنينًا لذلك ولا أسفًا عليه.

وقد دخلَ عليها عمرُ يومًا يُذكرها بإحدى منتجعاتِ الشام ومصايفه أيَّام الإمارةِ، فقد دخل عليها وهي تخيطُ ثوبَها بيدهَا، فطرح عليها ثوبًا قديمًا كان عليه، ثم قال لها مداعبًا، يا فاطمة لَنَحْنُ ليالي (يذكِّرها بمتنزَّه دابق وهي قريةُ قربَ حلب ـ أنعم منَّا اليومَ، فذكَّرها ما كانت نسيت من عيشها آنذاك ومن حياتها المنعَّمةِ قبيل الخلافةِ في برج دابق ومُتَنَزَّهاته الجميلة.

فضربت فاطمةُ يَدهُ ضربةً فيها شيءٌ من العُنفِ، فنحَّتها عنها، **وقالت له في أسىً:** لعمري لأنني اليومَ أقدرُ منك يومئذ.

وعبس عمرُ وحزنَ من كلامها، فقام يريدُ أن يمشيَ، وهو يقول بصوتٍ حزين ممزوج بدموعِ الخشيَةِ والرَّهبةِ من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: يا فاطمُ، ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (سورة الأنعام: ١٥).

فتأثرت فاطمةُ وبكتْ وهي تقول: اللَّهم أَعِذْهُ من النارِ.

وكانت الأميرةُ الزاهدةُ إلى جوارِ زوجها في أيام مرضِهِ الأخيرةِ، لم تفارقه أبدًا، وتتحدث عن هذه الأيام، فتقول: كنت أسمعُ عمرَ في مرضِهِ الذي مات فيه، يقول: اللَّهم أخف عليهم موتي ولو ساعةً من نهار.

وتقول أيضًا: فلما كان اليوم الذي قُبضَ فيه خَرَجْتُ من عنده، فجلستُ في حجرةٍ أخرى بيني وبينه بابٌ، وهو في قُبةً، فسمعتهُ يقول: ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (سورة القصص: ٨٣).

ثم هدأ، فجعلتُ لا أسمع له حركةً ولا كلامًا، فقلت لوصيفٍ كان يخدمهُ؛ ويحك أنظر أميرَ المؤمنين أنائمٌ هو؟ فلما دخل عليه صاحَ، فوثبتُ، فدخلتُ عليه، فإذا هو ميِّت، قد استقبل القبلةَ، واغمض نفسَه، فوضعَ إحدى يديه علي فِيهِ، والأُخرى على عينيه[1].

وجزع المسلمون والناسُ لموته، وجزعت الأميرةُ الزاهدةُ فاحتسبته عند الله واسترجعت قائلةً: «إنَّا لله وإنا إليه راجعون»، وقد توفي عمر في سنة ١١٠هـ رضى الله عن فاطمةً، والأمير الزاهد عمر بن عبد العزيز.

(١) «الكامل في التاريخ» (جـ٥/ ٦١).